**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه وبعد

فقد جرى نقاش حول معنى قوله تعالى **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}** [النمل: ٨٨].

**هل هذا المذكور في الآية حكاية عن حال الجبال في الدنيا أو في الآخرة؟**

فراجعت ما تيسر لي من كتب أهل العلم وكلامهم، وألخص ما انتهيت إليه، فأقول وبالله التوفيق:

ظاهر سياق الطبري، وابن كثير، والقرطبي، وصرح به ابن عطية وابن جزي وصديق حسن خان في (فتح البيان) والسعدي والشنقيطي وابن باز وابن عثيمين[١] وغيرهم؛ **أن ذلك في الآخرة**.

واقتصر عليه ابن الجوزي في تفسيره (زاد المسير)، مع اعتنائه بجمع الأقوال في الآية.

وهو ما قرر في (المختصر في التفسير).

لكن القاسمي في (محاسن التأويل) (٧/ ٥٠٨)، نقل التفسير المشهور عن السلف ثم قال: "وقال بعض علماء الفلك: لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه، لعدة وجوه ..".

وأنا أذكر هذه الوجوه ملخصا مع الجواب عنها:

- **الأول**: أن قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً} لا يناسب مقام التهويل والتخويف إذا أريد بها ما يحصل يوم القيامة. وكذلك قوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}، لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة.

[١] ينظر تفاسير هؤلاء الأئمة عند هذه الآية، والشنقيطي في (دفع إيهام الاضطراب) ص١٧٦، وابن باز في موقعه تحت عنوان (تفسير قوله تعالى {وترى الجبال تحسبها ..})، وابن عثيمين في تفسير سورة الكهف ص٨٠.

**ويمكن الجواب عنه:** أن هذا غير مسلم، بل هذه الحكاية عن الجبال أن الرائي لها يحسبها واقفة، وهي تمر مر السحاب يناسب التهويل والتخويف من عظمة ذاك اليوم، وما يحدث فيه للجبال مما ذكر في الآيات الأخرى.

وهذا كله من بديع وعظيم صنع الله وإتقانه، فصنع الله وإتقانه عظيم في خلق الجبال في الدنيا، وصنعه وإتقانه عظيم في دكها ونسفها وتسييرها في الآخرة.

- **الثاني:** هذه الآية صريحة في إرادة الحال، فحملها على المستقبل شيء لا موجب له. وهو خلاف الظاهر منها.

**ويمكن الجواب عنه:** أن حمله على المستقبل بدلالة العطف على فعل مستقبل {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ .. وَتَرَى الْجِبَالَ}، وهذا من المواضع التي تحمل فيها دلالة المضارع على المستقبل.

- **الثالث:** أن سير الجبال للفناء يوم القيامة، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق، وهذا شيء لا يراه أحد من البشر، كما قال: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ} [الزمر: ٦٨]، أي من الملائكة.

فما معنى قوله إذن {وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً} ؟.

**ويمكن الجواب عنه:** أن الصعق يعقبه البعث، فالنفخة الأولى يصعق الناس فيه، ثم تكون النفخة الأخرى فيبعثون، وتعود لهم الحياة مرة أخرى.

- **الرابع:** أن تسيير الجبال الذي يحصل يوم القيامة، إذا رآه أحد شعر به. لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان، فيحسّ بحركتها. وهذا ينافي قوله تعالى {تَحْسَبُها جامِدَةً} أي ثابتة. أما في الدنيا فلا نشعر بحركتها، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها. وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة. فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نسفا. وهذا شيء يراه كل واقف عندها.

**ويمكن الجواب عنه:** بعدم التسليم، وذلك أن الجبال تجمع وتدك وتسير، فهي لكثرتها تُحسب جامِدَةً – أي: واقفة – لكنها في الواقع: تَمُرُّ أي: تسير سير السحاب، وكذلك كلُّ شيء عظيم يحسبه الناظر من بعيد واقفاً وهو يسير، لكثرته وعظمته، كالسحاب ونحوه.

- **الخامس:** ورود هذه الآية في سياق الكلام على يوم القيامة، لورود آية {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً} المذكورة قبلها في نفس هذا السياق، والمراد بهما ذكر شيء من دلائل قدرة الله تعالى، المشاهدة آثارها في هذا العالم الآن من حركة الأرض وحدوث الليل والنهار، ليكون ذلك دليلا على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحصيها عليه. ولذلك ختم هذه الآية بقوله {إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ} فذكر هذه الأشياء في هذا السياق، هو كذكر الدليل مع المدلول، أو الحجة مع الدعوى. وهي سنة القرآن الكريم. فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائما، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها.

**ويمكن الجواب عنه:** أن ما ذكره ليس لازما، بل ربما يقال: إن ورود الآية في سياق الكلام على يوم القيامة دليل على أنها من مشاهد ذلك اليوم.

والأقرب – والله أعلم – **أن الآية من مشاهد الآخرة،** ويشهد لذلك:

١) سياق الآية، فإنها جاءت في معرض الحديث عن يوم القيامة، {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. – ثم قال: – مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}، والأصل اتصال الكلام بما قبله وما بعده، وملاحظة نظمه وسياقه.

٢) أنه قول عامة المفسرين من السلف والخلف.

٣) أن هذا المعنى هو الغالب في القرآن، وباستقراء الآيات التي فيها حركة الجبال؛ نجد أنها في يوم القيامة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً}، وَقَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَسُيِّرَتِ

الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ}، وغيرها. [ينظر: أضواء البيان ٦/ ١٤٥]

٤) لو حملت الآية على الدنيا، فكيف يكون معنى قوله {وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}؟!، والمُشاهَد أن الجبال ثابتةٌ قارةٌ تثبت الأرض.

- **إيراد وجوابه:**

إن قيل: في الآية {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً}، والآخرة حقائق لا حسبان فيها.

**فالجواب**: أنه لا مانع من ذلك شرعا ولا عقلا، ما دام أن الله أثبت ذلك فنؤمن به، ونحن نقرأ قوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى} [الحج: ١، ٢]، فهذا حسبان للرائي أن الناس سكارى، والواقع خلاف ذلك.

هذا ما ظهر لي، مع إقراري بقلة البضاعة، ومن وجد خطأ، أو وقف على فائدة مؤثرة في المسألة؛ فليتحفني بها، فالعلم رحم بين أهله، وله الدعاء والشكر.

والحمد لله رب العالمين ،،،

كتبه/ خالد بن عبد العزيز الباتلي

ليلة الأربعاء ١٣/ ١١/ ١٤٤٢ هـ